البحث
٢

أثر الحركة الصليبية
على الكشـــوف الجغرافيـــة

إعـــداد
د / نادية حســـن صقـــر

العلاقة بين الحروب الصليبية والكشوف الجغرافية

إذا تساءلنا عن العلاقة بين الحركة الصليبية والكشوف الجغرافية، نجدها علاقة وثيقة ، لقد قامت حركة الكشوف الجغرافية تحدوها الروح الصليبية التى سادت أوربا قبل ذلك . وتعبير «الروح الصليبية» هنا لا يعنى المسيحية ، فالمسيحية هى السلام ، وهى المحبة ، فالمسيحية التى تخاطب فى الإنسان وجدانه لا يمكن أن تكون دافعا حقيقيا لذلك الصراع المرير الذى سجلته وثائق العصور الوسطى للعلاقات بين الشرق والغرب .

ولكن الصليبية هنا هى روح استعمارية[١] تنطوى على الاحتلال[٢] وتهدف إلى تحقيق أطماع ومصالح اقتصادية[٣] أوربية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى ومن هنا فالكشوف الجغرافية ما هى إلا حلقة فى سلسلة ذلك الصراع بين الشرق والغرب بل يمكن القول أنها إحدى الحملات الصليبية الشرسة على الشرق الإسلامى .

فحينما فشلت الحروب الصليبية فى تحقيق أهدافها الحقيقية بخروج آخر قواتها من الشرق وسقوط عكا عام ١٢٩١م[٤] وخابت آمالهم الاستعمارية فى الشرق ، فإن ذلك لم يكن يعنى القضاء على الفكرة

---

(١) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين. ص ٤٩ .

(٢) وليم الصورى : الحروب الصليبية ج١ ص ٣١١ (ترجمة د. حسن حبشى) وقد جاء عنوان الكتاب الخامس كما يلى بالحرف الواحد : "حصار أنطاكيا واحتلالها".

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ٢١ – ٢٢ .

(٤) عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٦ .

الصليبية فى نفوس الأوربيين. إنما يعنى أنهم خسروا جولة قد تعقبها جولات ومحاولات . وجاءت المحاولة الجديدة للسيطرة على الشرق فى صورة حركة الكشوف الجغرافية.

فشلت الحركة الصليبية فشلا تاما فلم تتمكن أوربا من احتلال الشرق الإسلامى . ولكن ترتب على الحركة الصليبية نتائج هامة مساعدة وممهدة لحركة الكشوف الجغرافية مثل نمو المدن أو نشأة المدن الكبرى فى أوربا العصور الوسطى وازدياد حركة التجارة الأوربية وضخامتها حتى أن الطوائف الدينية العسكرية «الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون» تطورت إلى هيئات تجارية امتلكت أساطيل التجارة والبنوك [1] ثم بذلت التجارة الأوربية الصاعدة محاولات كبيرة للوصول إلى ثروة وسلع الشرق . وحققت فى ذلك نجاحا كبيرا ، فقد تمكنت من إقامة مستودعات تجارية فى الشرق مثل التى قامت فى عكا ، ثم فى فاماجستا بقبرص بعد سقوط عكا[2] وكانتا مركزين عظيمين لتجارة الشرق الأدنى، وبالتالى سيزداد اهتمام أوربا بالشرق الأقصى فتسعى للوصول إلى مصادر المواد الخام وسلع الشرق بدون وساطة أحد، لذلك تسعى لاكتشاف طرق جديدة خاصة بها تتحكم فيها وهو ما يسمى بحركة الكشوف الجغرافية .

---

(١) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٨٤ – ١٨٥ .

(٢) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٨٥ .

وترتب على الحركة الصليبية أيضا حصول الأوربيين على المعلومات والمعارف وإلا فكيف تجمعت المعلومات العسكرية عن الطرق المؤدية إلى مصر. ازدادت معارفهم الجغرافية ثم ما كان معروفا من كتب الإرشاد الخاصة بالحجاج لتهديهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة ، لقد كان من نتائج الحروب الصليبية حصول الأوربيين على المعلومات الجغرافية[١] ومنها ما هو عن طرق الملاحة فقد نجم عن الحروب الصليبية بعض الخبرات والمعارف .

ومن ناحية أخرى فان البعثات التبشيرية[٢] المتتالية استطاعت التوغل فى آسيا برا من عكا إلى بكين . كما اتجهوا بحرا من البصرة إلى كانتون حتى تم مايمكن أن يسمى اكتشاف آسيا. وهذا فى حد ذاته عمل بالغ الأهمية فهو توجه أوربى نحو آسيا لم يكن موجودا من قبل، يشكل إرهاصات أو مقدمات لحركة الكشوف الجغرافية ، ثم ما صاحب البعثات التبشيرية من اهتمام باللغات الشرقية ودراستها مما سيكون له أيضا أثر على حركة الكشوف الجغرافية.

ومن المؤرخين الأوربيين من يقر بأن الكنيسة اللاتينية كانت تطمع فى نشر الكاثوليكية فى مختلف أنحاء العالم حينئذ ولو بقوة السلاح[٣] وقد قام المبشرون والجماعات الرهبانية التبشيرية مثل الفرنسيسكان

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٢) Runciman : History of the Crusades : Vol. 1, pp. 159-160.

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ٩ .

والدومينكان بمحاولات كبيرة لتحويل المسلمين والمسيحيين الشرقيين إلى الكاثوليكية على مذهب روما[١] ، كان هدفهم صبغ الشرق بصبغة كاثوليكية بحتة. بدأت البعثات التبشرية على يد القديس فرنسيز الذى حاول تنصير الملك الكامل الأيوبى[٢] وانتشرت بعد ذلك البعثات التبشيرية حتى وصلت إلى بكين. ويجب ألا ننسى بأن البحث عن وسائل جديدة مباشرة للإتصال بطرق التجارة الشرقية، يعتبر من الأغراض التى انطوت عليها الحروب الصليبية ذاتها وأدت إلى ما يصح تسميته اكتشاف آسيا فى القرن الثالث عشر الميلادى[٣].

وحرصت المدن الإيطالية على أن تحصل على منتجات الشرق بسعر رخيص، وبطريق مباشر بفضل ما تشيده من مستودعات فى شرق البحر المتوسط، وكان هدف تجار المدن الإيطالية والفرنسية والأسبانية الذين شاركوا فى الحملات الصليبية استغلاليا تجاريا واضحا فالكسب الكبير الذى يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصدر ثراء كبير للمشتغلين بها جعل امتلاك مصر وبلاد الشام والشمال الأفريقى حيث تنتهى الطرق البرية الرئيسية للسلع الشرقية هو بيت القصيد فى السطرة على تجارة هذه السلع[٤]. لذلك بذلت أساطيلهم

---

(١) Baldwin : Medieval Church pp. 109 - 112.

(٢) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٤ – ٨٥ وما بعدها.

زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٤ – ٤٦ .

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٤ – ١٨٥ وما بعدها .

(٤) Pirenne : Economic and Social History, P. 31.

جهدا كبيرا وقاموا بدور فعال فى الاستيلاء على المراكز التجارية الرئيسية فى الشام . كما قاموابدور كبير فى الحملات على مصر وشمال افريقيا بعد ذلك[١] . وهذا يتضح فيما عقد من المعاهدات التى عقدها هؤلاء التجار مع حكام مملكة بيت المقدس اللاتين وكل ما تضمنته من امتيازات عديدة مالية وقضائية لصالح هذه الجاليات .

لقد كان للجاليات التجارية مصالح وأطماع قديمة فى هذه الموانى التى تفتح لها الطريق إلى الشرق الأوسط والشرق الأقصى ، وكانت المدن والموانى الواقعة على سواحل الشام مسرحا لصراع رهيب بين الجاليات التجارية الأوربية حول الأمور التجارية والمالية وكثيرا ما كان يتطور إلى قتال وحروب بين الأوربيين بعضهم البعض مما يؤكد تغليب وأهمية الجوانب والعوامل التجارية[٢] . والإتجاه الإستغلالى الاستعمارى . إن الاحتلال أو الاستعمار ثم التجارة ثم الجغرافيا كل هذه الأمور كانت وثيقة الارتباط والصلة بالحركة الصليبية كما أنها أيضا وثيقة الارتباط والصلة بحركة الكشوف الجغرافية .

فشلت العسكرية الأوربية الصليبية فى السيطرة على الشرق العربى الإسلامى ذى الموقع المتميز والمحتكر للتجارة العالمية وإخضاعه عسكريا .

---

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٩٥ وما بعدها .
محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) جوزيف نسيم ، العرب والروم والاتين ص ٨٨
pirenne : Op. Cit . P. 31.

والمعروف أن طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب كانت فى يد الدول العربية الإسلامية[١] . وعلى رأسها مصر تتحكم فى نقل بضائع وسلع الشرق الأقصى إلى أوربا وبالعكس . تجنى من ورائها أموالا طائلة من الضرائب والأرباح الوفيرة، وكان امتلاك مصر وبلاد الشام حيث تنتهى الطرق البرية الرئيسية للسلع الشرقية هو الهدف الرئيسى للحروب الصليبية للسيطرة على تجارة هذه السلع فلما فشلت الحركة الصليبية فى احتلال مصر والشام وصولا إلى سلع الشرق ، كان عليها أن تبحث عن طريق آخر يوصلها إلى هدفها تصل من خلاله إلى المورد الأصلى لسلع الشرق أو مصادر تجارة الشرق فكانت حركة الكشوف الجغرافية .

رأت أوربا أن تضرب الشرق العربى الإسلامى فى الصميم بكشف طريق جديد يصل بينها وبين الشرق الأقصى فى الصين والهند وشرق آسيا دون المرور على مصر فكان طريق رأس الرجاء الصالح والمرور من جنوب أفريقيا . وقد ترتب على ذلك حرمان مصر والشام والخليج من الضرائب والأرباح .

انتزعت أوربا السيطرة على طريق التجارة العالمى وتحكمت فى التجارة الدولية [٢]. وهزمت الشرق العربى اقتصاديا وسوف يكون لذلك

---

(١) جورج حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ١٩٥ .
Milles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf, P. 356

(٢) صلاح العقاد : التيارات السياسية ص ١٤ – ١٥ .

أسوأ الأثر على أوضاع تلك الدول، فدولة المماليك فى مصر وما أصابها من أضرار نتجة الكشوف الجغرافية وانتقال طرق التجارة العالمية من البحر الأحمر والبحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح يشهد به تاريخ تلك المرحلة، ولا يخفى ذلك على من له إلمام بتاريخ العصور الوسطى فباكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح انهارت تجارة سلاطين المماليك(١). فكان أمرا طبيعيا أن تتدهور أوضاع المنطقة بعد أن سادها الضعف وترتب على ذلك ازدياد نفوذ البرتغاليين أصحاب الكشوف الجغرافية ، وانتشر النفوذ البرتغالى وساد فى المحيط الهندى والخليج العربى خلال القرن العاشر الهجرى، السادس عشر الميلادى ونجح الأوربيون الصليبيون فى شخص البرتغاليين فى تدمير القوى البحرية العربية فى منطقة الخليج العربى فدمروا الموانى العربية بما فيها من سفن راسية أو عابرة ومارسوا أعمال القرصنة والسلب والنهب للسفن العربية فى الخليج(٢). فسيطر الأوربيون على تجارة السلع الشرقية ومنعوا وصولها إلى موانى مصر والشام .

تكررت الحملات البرتغالية فى جنوب شبه الجزيرة العربية ومدخل

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٩٠ .

(٢) النهروالى : البرق اليمانى ص ١٨، ١٩.

Sousa : The History of the Discovery and Conquest of India by the Portugese vol. 3, p.103 .

البحر الأحمر حتى وصلوا إلى جدة .وتحالفت البرتغال مع الحبشة[١] لضرب القوى الإسلامية وخلق جبهة صليبية تتصدى للقوة الاسلامية المتمثلة فى الدولة العثمانية التى بدأت تقف فى وجه النفوذ البرتغالى فى البحر الأحمر والخليج[٢]. هكذا جاءت حركة الكشوف الجغرافية تحقيقا لنفس الهدف الذى سعت إليه الحركة الصليبية وفشلت فى تحقيقه .

إن الحملات الصليبية وإن اتخذت من الصليب شارة وتعللت بحماية الأماكن المسيحية المقدسة والحجاج المسيحيين مما يلحق بهم على أيدى المسلمين رغم أنه لم تكن هناك مخاطر حقيقية[٣] فإن هذا العامل الدينى قد استخدم لكسب الرأي العام فى أوربا وحمل الجماهير على تأييد ودعم تلك الحروب الصليبية ومن الثابت والمؤكد أنه كانت لها أهداف سياسية واقتصادية تتمثل فى الحيلولة دون سقوط روما والقسطنطينية فى يد المسلمين[٤]، ثم تحسين الأحوال الإقتصادية المتدنية فى أوربا حيث انتشرت المجاعات والأوبئة ، بفتح طرق التجارة خصوصا بعد أن امتد التوسع الإسلامى إلى جنوب فرنسا وطوقت الدول الأوربية وأصبح البحر

---

(١) السيد رجب حراز : عصر النهضة ص ٣٢٥ .

(٢) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٤٩ – ٢٥٣ .

Sousa : Op. Cit. Vol 3 PP.29 - 30

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٧٤ وما بعدها ، ص ١٥٧ .

عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٠ – ٣١ ، ص ٨٦ .

ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ١٣ .

(٤) ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ٩ ، ١٧ .

المتوسط بحيرة إسلامية مما أدى إلى التدهور الاقتصادى للدول الأوربية خاصة فرنسا[1]. فكانت هناك أطماع فى الحصول على ما بأراضى المسلمين من ثروات تخرج الشعوب المسيحية الأوربية من مشاكلها الاقتصادية وفى قول البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥م ما يؤكد ذلك .

وهل يمكن لأى مؤرخ منصف أن يقرر أن اشتراك المدن التجارية الإيطالية وعلى رأسها البندقية فى الحروب الصليبية بذلك الحماس البالغ والكبير ، كانت دوافعه دينية ؟ لقد اندفعت تلك المدن التجارية الإيطالية، وقامت بذلك الدور الكبير فى الحركة الصليبية وقدمت التضحيات من أجل مصالحها الاقتصادية. لقد كانت الحركة الصليبية فرصة لتحقيق قدر من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والفكرة الصليبية[2]. لكثير من الطوائف المشاركة وليس أدل على ذلك من قول السيد المسيح عليه السلام حين تجلى لكاهن يدعى ستيفن فى أنطاكيا خلال الحملة الصليبية الاولى.

---

(١) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, Vol. 1, P. 302

(٢) ريموناچيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص ١٨ .

جاء فى مقدمة الترجمة العربية ما يلى : "كشفت العلاقات بين قادة الحملة عن المعنى الحقيقى للحركة الصليبية فكثيرا ما توارى الدين أمام المصالح الخاصة بالنبلاء ، وتاكد الحرص على المصالح الخاصة دون الصالح الصليبى العام الذى ظهرت بوادرة بمجرد انتهاء الفرنج من أعباء عبور اسيا الصغرى "

وفى ص ١٥١ تحدث ريموناجيل عن الصراع الذى قوض أسس العلاقات الودية بين الصليبيين بعضهم البعض بحيث أن قلة فقط هى التى كانت تتجنب النزاعات مع الزملاء على السرقة والعنف .

وفى ص ١٩٠ تحدث عن الصراع بين أمراء الحملة الأولى وسوء سلوكهم .

وفى ص ٢٥٧ تناول تلك الصراعات أيضا .

فـأمـره المسـيح قـائلا : " أبلغ الأسـقف أن هؤلاء الناس بأعـمـالهم الشريرة قد أبعدونى عنهم "[1] والمعروف أن شعار البنادقة فى الحروب الصليبية كان " لنكن بنادقة أولا ثم مسيحيين بعد ذلك "

لقد عقدت المدن الإيطالية معاهدات مع القوى الصليبية بالشام حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية وتجارية هامة . وكما كانت السيطرة على مراكز التجارة العالمية وطرق الملاحة هدفا هاما من أهداف الحركة الصليبية ، فسوف نجد أيضا أن مراكز التجارة الدولية وطرق الملاحة العالمية وسلعها كانت هدفا سعت إليه حركة الكشوف الجغرافية . وإذا كانت أوربا قد فشلت فى تحقيق هذا الهدف من خلال الحركة الصليبية ، فقد نجحت فى تحقيقه من خلال حركة الكشوف الجغرافية[2]. إن صبغ الحركة الصليبية بصبغة دينية لم يكن إلا وسيلة لتحريض العامة وقناعا تتخفى وراءه أهداف أخرى لا صلة لها بالدين[3].

---

(١) ريموناجيل : المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٢) ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ١٤ .

(٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ٦ وما بعدها .

عبد الله عنان : مصر الاسلامية ص ١٠٨ وما بعدها .

أسباب ودوافع الحروب الصليبية .

لسنا فى مجال بحث أو دراسة أسباب الحركة الصليبية ولكننا نتناولها من منظور واحد فقط وهو أن الفكرة الصليبية كانت قناعا يخفى وراءه دوافع سياسية واقتصادية ملحة خاصة فى فرنسا[١] مهد الدعوة للحروب الصليبية. ولا نعتمد هنا على المصادر العربية فقط إنما على المصادر الأوربية والبيزنطية وأهمها كتاب الألكسياد ALEXIAD الذى كتبته الأميرة آن كومنين ANNA COMNENA وفيه تكشف الأميرة آن بوضوح بالغ وصراحة تامة عن الإتجاهات الإستعمارية العدوانية للحركة الصليبية وجشع اللاتين وأطماعهم فى الدولة البيزنطية والعالم العربى مسرح اتجاهاتهم التوسعية[٢].

وفى هذا تقول آن كومنين (الكتاب العاشر) ما نصه : «لقد علم والدى بأن جموعا غفيرة من جنس الفرنج كانت تقترب من العاصمة ولقد فزع من تلك الأخبار ، فهو يعلم جيدا أن الفرنج أصحاب نزوات جامحة، وأنهم متقلبوا الطباع، شديدو الجشع، ولا يؤتمنون فى شئ»[٣] .

---

(١) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, Vol. 1, P. 303.

(٢) P. 249 - 263.

أورد الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم ترجمة عربية لجزء من هذا الكتاب بلغ سبعة عشر صفحة هى الملحق الثالث من كتاب العرب والروم واللاتين ص ٣١٢ .

(٣) See the Alexiad of Anna Comnena (Translated from The Greek by E.R.A. Sewter, P. 308.

وصف آن كومنين لمنظر وهيئة بطرس الناسك والحملة الشعبية وقائدها Gautier Sans avoir والقائد والترالمفلس Walter the Penniless فقانون الاقطاع كان يعطى اللقب والأراضى للإبن الأكبر فقط والباقى يصبحون فرساناً مفلسين، وقد وجد هؤلاء ضالتهم فى الحملة الصليبية، فقد كان بلدوين شقيق جودفرى من اللورين فارساً مفلساً ثم صار ملكاً لبيت المقدس بعد ذلك. وكذلك دعوة البابا أوربان الثانى للعسل واللبن فى الشرق مما يؤكد وجهة نظرنا.

ورغم كل ما يمكن أن يقال من أن البابوية هى التى دعت إلى الحرب الصليبية المقدسة فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م فى مؤتمر كليرمونت بفرنسا (١٨ – ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥)[١]. وأن البابوية هى التى أشرفت عليها وباركتها[٢] وأن فرنسا كانت موطن الحركة الكلونية، وما يمكن أن يقال أيضا عن سلطان الكنيسة الطاغى وسطوتها فى تلك العصور وما كان للدين والكنيسة من قوة عظيمة حتى على الملوك والأمراء والأباطرة بما توقعه عليهم من قرارات الحرمان واللعنة والقطع، وكيف كانت الدعوة إلى حرب صليبية سلاحا ماضيا فى يد البابوية تشهره فى وجه الخارجين عليها، وأن العصور الوسطى هى عصور الإيمان وعصور التفكير الدينى[٣].

---

(١) ريموندا چيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص ١٥ .

(٢) Baldwin : The Medieval Church, P.P. 103 -4.
Arnold : Legacy of Islam, PP. 69 - 70.

(٣) ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ٢٠ وما بعدها.

ورغم طلب الأمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع العون من البابا جريجورى السابع الذى استعد لإرسال حملة تساعد البيزنطيين على استرداد آسيا الصغرى من يد المسلمين مقابل اتحاد الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية خاصة بعد نجاح الحرب المقدسة فى أسبانيا. ورغم استنجاد الكسيوس بالبابا أوربان الثانى[١] أكثر من مرة .

رغم كل ذلك فمن المؤرخين الأوروبيين من يرى أن الحروب الصليبية هى امتداد واستمرار لحروب التوسع الإقطاعى التى كان يقوم بها كبار الإقطاعيين فى أوربا قبل الحروب الصليبية[٢] بينما اتخذوا من الأسباب الدينية ستارا يخفى أغراضها الحقيقية والتى ليست من الدين فى شئ وتعمدوا إضفاء الصبغة الدينية بقصد التمويه وإبعاد الشبهات عن الأهداف الحقيقية للحروب الصليبية.

لقد وجدت البابوية فى الحركة الصليبية فرصة سانحة لبسط نفوذها على أوربا كلها بالتخلص من نفوذ أمراء الإقطاع وإرسالهم فى هذه الحروب لتوسيع إقطاعياتهم والاستيلاء على أراضى جديدة للحصول على ثرواتها الهائلة بالقوة [٣] والصراعات الطاحنة والمتكررة بين أمراء الحملة الصليبية الأولى تؤكد ذلك[٤].

---

(١) المصدر السابق ص ١٩ .

(٢) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين. ص ٤٩ أول من قال بهذا الرأى لويس هالفن فى كتابه (انطلاقة أوربا فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر).

(٣) ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص ١٦، ١٨، ص ١٦٣ ، ١٦٥
Sousa : Op. Cit. Vol. 1, pp 60 - 61.

(٤) ريموندا جيل : المصدر السابق ص ١٢٥ (هامش رقم ١٠) .

كما وجدت البابوية فى الحروب الصليبية أيضا فرصة عظيمة لتحقيق ما تصبو إليه منذ زمن طويل بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية على المذهب الكاثوليكى. وبالتالى فرض سلطانها الدينى والدنيوى على العالم المسيحى شرقه وغربه وذلك بعد الشقاق الدينى المعروف ١٠٥٤م[١] وصبغ الشرق العربى بصبغة كاثوليكية بحتة بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها.

إن صبغ الحركة الصيبية بصبغة الدين لا يعنى إطلاقا أنه كان العامل الحقيقى الذى أدى إلى قيامها. إنما كان وسيلة لجمع الشعوب لتحقيق أهداف أخرى سياسية واقتصادية ثقافية واجتماعية[٢] يؤكد ذلك قول ريموندا چيل : «ذلك فإن الرب، الذى لم يشأ أن يساعدنا فى حصار قمنا به فى سبيل مصالح ظالمة وليس فى سبيلة، أمطرنا بكل أنواع المصائب. ومن الغريب أن المسيحيين الذين كانوا يتشوقون من قبل إلى المعارك ويستعدون لها، أصبحوا الآن لا يميلون إلى القتال ولا يتمتعون بالحيوية...»[٣].

ولكى تحقق البابوية أغراضها وعدت كل من يشارك فيها بالغفران

---

(١) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ١٨٨ وما بعدها.

Baldwin : Op. Cit. PP. 109 - 112

(٢) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ٦ – ٩.

فشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ج١ ص ١٤٣ – ١٤٦ . ترجمة زيادة والعرينى .

(٣) ريموندا چيل : المصدر السابق ص ١٨٦ .

التام من الخطايا والآثام. والمؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه المعروف بتعصبه لقوميته الفرنسية، اعترف فى كتابه «حصيلة التاريخ» بأن الحركة الصليبية لم تقم نتيجة لدوافع دينية[١].

لقد كان من مصلحة البابوية تشجيع الحروب الصليبية التى صارت معينا لا ينضب من المال الذى امتلأت به خزائنها، بما فرضته من ضرائب مختلفة بحجة الإنفاق عليها. بينما كانت فى الواقع تنفق على أوجه أخرى تحقيقا لمصالح البابوية وأطماعها العلمانية[٢].

إن ما ارتكبته الحملة الصليبية الأولى من أعمال بالأراضى البيزنطية[٣] من نهب وسلب وتخريب حتى الكنائس لم تنج من الصليبيين، لدليل واضح على أن العوامل الدينية لم تكن هى الدافع الحقيقى للحركة الصليبية . ولعل فى قول وليم الصورى ما يوضح ذلك إذ يقول :"استبد بالإمبراطور وبجميع من حوله الفزع الكبير حين رأوا البلد بأكمله عرضة للنهب. كما أنه لم يعد فى قدرة الإمبراطور احتمال أنين شعبة وبكائة[٤]. وفى رسالة من الإمبراطور البيزنطى إلى بوهيموند يقول فيها : "فإنا

---

(١) Grousset : The Sum of History, P. 191.

(٢) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ١٩٥ – ١٩٦ .

جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين. ص ٧٢ .

Arnold, Op. Cit. PP. 69 - 70.

(٣) ريموندا چيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ص١٧، ٧١ .

Runciman, S : The First Crusaders Journey across The Balkan Peninsula. B. 18 1948. PP. 207 - 221.

(٤) وليم الصورى : الحروب الصليبية ج١ ص ١٦٥ .

نلتمس منك أيها الصديق الحبيب أن توعز إلى أتباعك بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعايانا، وألا يرتكبوا عملا من أعمال العنف أو النهب أو إضرام الحرائق»[١].

ثم إن النزاع الدائم المستمر بين رجالات الحملة الصليبية الأولى حول السيطرة على البلدان التى يفتحونها[٢] لدليل آخر، يتضح ذلك جليا من شهادة شاهد عيان للحملة الصليبية الأولى بل من أهم مؤرخيها إذ يقول :«وترك فرنساننا أنطاكيا، متجاهلين المصلحة العامة، وجريا وراء الآمال الأنانية لكسب بعض المنافع المادية حتى من بقوا فى المعسكر كانوا يستمتعون بحياة الترف لدرجة أنهم كانوا لا يأكلون إلاّ أحسن قطع اللحم كالفخذ والأكتاف ...»[٣] . وفى موضع آخر يقول : «وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويضعون سجلا وأمعنوا فى نسيان الله مانح كل هذه النعم فأفرطوا فى الأكل بنهم شديد وبذخ واهتموا بالراقصات».[٤] إن بلدوين شقيق جودفرى وأحد زعماء الحملة الأولى والذى استقر فى الرها حيث أسس لنفسه إمارة بها، وذلك قبل أن تصل الجيوش إلى بيت المقدس، إن ذلك لدليل قاطع على

---

(١) وليم الصورى : الحروب الصليبية ج١ ص ١٧١ .

(٢) ريموندا چيل : تاريخ الفرنجه غزاة بيت المقدس ص ٣٢ - ٣٣ .

Ostrogorsky : History of the Byzantine State, P. 393.

(٣) ريموندا چيل : المصدر السابق ص ٨٦ .

(٤) ريموندا چيل : المصدر السابق ص ١٢٠ .

الاتجاهات التوسعية للحركة الصليبية منذ بدايتها[١] كما أن هجماتهم على مصر ١١١٨م عن طريق العريش ومحاولتهم احتلالها وتكرار المحاولة على يد عمورى ملك بيت المقدس عدة مرات دليل أيضا على الاتجاهات التوسعية فى الشرق العربى[٢] كما أن الحملة الصليبية الرابعة كانت دليلا قاطعا على انعدام الباعث الدينى من ناحية وتأكيدا للأهداف التوسعية[٣] للحركة الصليبية من وراء ستار الدين من ناحية أخرى.

---

(١) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٧٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ص ٤ وما بعدها .

ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ١٨٧ - ١٨٩ .

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ٢١ .

أسباب ودوافع الكشوف الجغرافية

أولا - الدوافع الدينية

لاشك أن العوامل الدينية كانت من العوامل التى لعبت دوراً ما فى حركة الكشوف الجغرافية التى لا تخرج عن كونها حلقه ضمن سلسلة الحروب الصليبية التى امتدت خلال العصور الوسطى .

إن المتتبع لتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب يدرك أن الانتصار الحاسم الذى أحرزه المسلمون على الصليبيين فى مصر والشام لم يضع حداً للعداء الأوربى نحو الشرق الإسلامى وسيستمر العداء المرير وإن اختلف المسمى ، فالهجمه الصليبية القادمة خرجت من البرتغال وباركتها البابوية والكنيسه الكاثوليكيه ففى عام ١٤٥٤م أصدر البابا نيقولا الخامس منشورا يبارك فيه جهود هنرى الملاح ويعلن أحقيته فى غزو الشعوب التى يسودها أعداء المسيح[١] حتى الهند .

وبعد وفاة نيقولا ١٤٥٥م ، أصدر البابا الجديد كاليكستوس الثالث مرسوما فى سنة ١٤٥٦م أكد فيه كل ما جاء عن البابا السابق نيقولا الخامس[٢]. وأورد ذلك المؤرخ المسلم المعاصر زين الدين فى كتابه

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربيه ص ٢٦ وما بعدها .

عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربيه ص ٢٦ وما بعدها .

« تحفه المجاهدين » فيها يقول بالنص « ثم أن بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وإدخالهم فى النصرانيه[١] » فلقد استحوذت على البرتغاليين والأوربيين عامه فى تلك المرحلة فكرة تحويل المسلمين فى آسيا وأفريقيا إلى المسيحية[٢] فبعد سقوط غرناطه سنه ١٤٩٢م[٣] كانت مرحلة تتبع المسلمين فى كل مكان برا وبحرا إلى شمال أفريقيا[٤] وقد أكد بانيكر أن روح التعصب ضد الإسلام والمسلمين قد سادت أسبانيا والبرتغال فى القرن السادس عشر الميلادى[٥] .

كانت فكرة مواجهة الإسلام فى عقر داره من أبرز دوافع وأهداف حركة الكشوف الجغرافيه وهذه الفكرة وإن كانت قد سيطرت على العالم الأوربى المسيحى منذ زمن فقد ازدادت الحماسة لها فى القرن السادس عشر ، ذلك أن حركة الكشوف الجغرافية تعنى الالتفاف حول العالم الإسلامى وتطويقه[٦] . فالكشوف الجغرافية كانت الوسيلة الفعالة لدى الصيليبيين الأوربيين للوصول إلى قلب العالم الإسلامى .

---

(١) ص ٤٦ .

(٢) رجب حراز : عصر النهضه ص ٣٠٩.

(٣) Shaw : The Ottoman Empire Vol. 1, P. 99

(٤) عنان : نهاية الأندلس ج٤ ص ١٦٨ .

سعيد عاشور : الحركه الصليبيه ج٢ ص ١٢٥٣ .

(٥) آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٤ .

(٦) Shaw : The Ottoman Empire Vol. 1, P. 99.

وفضلا عن ذلك فإن التوسع العثمانى فى أوربا كان له أثره على حركة الكشوف الجغرافية فقد فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م وتردد صدى هذا الفتح فى أسبانيا كما تردد فى كل أنحاء أوربا وأزداد الحقد الصليبى ضد المسلمين خشية مداهمة الإسلام لهم فى عقر دارهم لذلك حاولت أوربا الصليبية استئصال القوى الإسلامية .

فهناك علاقة وثيقه بين سقوط القسطنطينيه فى يد العثمانين وبين قيام حركة الكشوف الجغرافية ، ذلك أن فتح العثمانيين للقسطنطينية وتهديدهم لأوربا من بابها الشرقى زاد من روح الكراهية ضد العالم الإسلامى[١] يؤكد ذلك موقف البابا كاليستوس الثالث الذى بذل أقصى جهوده لتأليب أوربا الصليبية ضد الشرق الإسلامى وتكون حلف صليبى لمحاربة العثمانيين واسترداد القسطنطينية ، ولذلك شرع للصليبيين صلاة التبشير Angelus يتوسلون بها للنصر على الأتراك وهو نفس البابا الذى أصدر مرسوما سنة ١٤٥٦م أكد فيه كل ما جاء عن البابا السابق نيقولا الخامس[٢] .

---

(١) عنان : نهاية الأندلس ج٤ ص ١٦٨ .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربيه ص ٢٦ وما بعدها .

عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثه ص ١١٢ وما بعدها .

ويستمر تشجيع الكنيسة الكاثوليكية الأوربية لحركة الكشوف الجغرافية ، ويذكر التاريخ المراسيم التى أصدرها البابا اسكندر السادس سنة ١٤٩٣م[١] .

ولو أضفنا إلى ذلك ما قيل حول أسطورة برستر جون أو الكاهن يوحنا تلك الأسطورة الأدبية التى شاعت وانتشرت فى أوربا منذ القرن الثانى عشر الميلادى حول الكاهن يوحنا البطريرك المسيحى الذى أسس امبراطورية مسيحية ضخمة فى الشرق بكل ما أحاط بها من خيال عجيب عن ثرائها وسلطانها[٢] واستعدادها لقتال أعداء المسيح .

وصارت تلك الأسطورة فى القرن الثالث عشر الميلادى تعبر عن آمال الصليبيين فى مساعدة ذلك الامبراطور فى هزيمتهم للعالم الإسلامى، خاصة بعد انتصار المسلمين فى الشام ومصر على الصليبيين ، ثم ارتبطت هذه الأسطورة بملكه الحبشة وتمثلها الصليبيون فى شخص ملوك الحبشه الأقوياء الذين يحاربون المسلمين من حولهم ثم أيضا فى خانات المغول بعد ذلك خاصة هولاكو الذى كان متزوجا من امرأة نسطوريه المذهب وكان حليفا شديدا لملوك الأرمن ضد المسلمين وفسر

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربيه ص ٢٨ وما بعدها .

أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٨٥ وما بعدها .

(٢) The Cambridge Hist. of Africa, Ethiopia And The Red sea Vol. 3. PP. 177 - 178 .

الأوربيون هذه الحروب على أنها تدخل ضمن دائرة الحروب الصليبية التى تستهدف المسلمين[١] .

ثانيا - الدوافع الإقتصادية :

كان البرتغاليون أول من بحث عن امبراطورية برستر جون فبعثوا إلى الحبشه فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى[٢] بعدة بعثات سبقت البعثات الكشفية والجهود البحرية الكبيرة التى قام بها البرتغاليون للعبور حول طرف أفريقيا الجنوبى[٣] وكان الهدف الرئيسى لرحلة بارثلميودياز هو الوصول إلى امبراطورية برستر جون ، والاتصال به فى شرق أفريقيا[٤] وقد أورد المؤرخ البرتغالى سوزا Sousa تلك الفكرة عند البرتغاليين[٥] فشرحها ووضحها .

ورغم كل ذلك فلا نميل إلى الاعتقاد بأن الدوافع الدينية وحدها كانت وراء حركة الكشوف الجغرافية فهذه الدوافع الدينية وإن كان لها

---

(١) عبد المجيد عابدين : الحبشه والعرب ص ١٦٨ وما بعدها .

(٢) عبد المجيد عابدين : الحبشة والعرب ص ١٦٩ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق .

(٤) يسرى الجوهرى : الكشوف الجغرافية ص ١٣٠ وما بعدها .

(٥) Sousa : The History of the Discovery and Conquest of India by the Protugese P. 63 .

نصيب من الصحة إلا أنها لم تكن وحدها كافية للقيام بمغامرة الالتفاف حول أفريقيا ، والأرجح أن الدافع الإقتصادى كان الدافع الرئيسى فلم تكن الدوافع الدينية إلا ستارا أستترت من ورائه دوافع اقتصادية ومصالح استعمارية تماما مثلما كانت الحركة الصليبية ، فالغايه فى الحالتين تتمثل فى تحقيق المصالح الإقتصادية ، والإستعمارية ، ورغبة أوربا فى السيطرة على العالم العربى الإسلامى واستغلال موارده وثرواته فإن كان الاحتلال العسكرى قد فشل بسقوط الإمارات الصليبية فى الشام ، فلم لا تكون السيطرة الإقصادية بتحويل طرق الملاحه والسيطرة، والتحكم فى طرق التجارة العالمية من خلال حركة الكشوف الجغرافية ؟

كانت البرتغال أقدر دولة أوربية على القيام بحركة الكشوف بشواطئها الطويلة على المحيط الأطلنطى وموقعها الجغرافى مما أهلها لريادة حركة الكشوف الجغرافية ، كما كانت البرتغال سباقة فى الإتصال بالمدن التجارية الإيطاليه خاصة جنوه والبندقية ، فأخذت من خبرتهما فى فنون البحر والملاحة . وقد أحضر[1] دون بدرو البرتغالى نسخة من كتاب رحلة ماركو بولو من مدينة البندقية وقدمها لأخيه هنرى الملاح المعروف بحماسه وجهوده فى حركة الكشوف الجغرافية ، وقد لعب الأمير هنرى الملاح دورا كبيرا فى تلك الحركة ، فهو إبن الملك جون ملك

---

(١) فشر : أوربا العصور الوسطى ج٢ ص ٤٦٢ وما بعدها .

رجب حراز : عصر النهضة ص ٣٠٦ .

البرتغال . كان محاربا صليبيا له تاريخ خافل بحروبه ضد المسلمين فى شمال أفريقيا ، وعرف عنه كراهيته الشديدة للمسلمين ورأى فى حربهم ضرورة دينية[1] وقد نشأ وتربى فى أحد الأديرة الإسبانية وكان رئيسا لطائفة الجيزويت .

وقد استفاد هنرى الملاح من ثراء الرهبان اليسوعيين ، فأنشأ مرصداً ومدرسه بحرية وأحضر إليها الخبراء والعلماء فى الخرائط والرياضيات والفلك وعلوم البحار واهتم ببناء أقوى وأكبر السفن آنذاك[2] . وفى عهد هنرى وبفضل جهوده تم كشف جزر ماديرا فى سنة ١٤٢٠م وجزر أزورس فى ١٤٣١م ووصلت الرحلات البرتغالية إلى السنغال[3] .

عرف الأوربيون كثيراً عن ثراء الشرق وحضارته المتقدمة ، والسلع الشرقية وأهمها السلع الآتية من الهند والشرق الأقصى مثل التوابل بأنواعها والعقاقير ، القرفة والقرنفل والراوند والكافور والزنجبيل والخلنجان والشمر والحبهان وجوزة الطيب والزعفران .

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربيه ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ وما بعدها . شينى : تاريخ العالم الغربى ص ١٧٥ وما بعدها.

(٣) يسرى الجوهرى : الكشوف الجغرافية ص ١٢٨ وما بعدها .

شينى : المصدر السابق ص ١٧٦ وما بعدها .

ومن سلع الشرق الأقصى المسك والبخور والصندل والعود والجاوى والمصطكى واللادن واللبان وخشب الساج وأنواع العطور والأحجار الكريمة وغير ذلك[١] .

ومن سلع شرق أفريقيا الدقيق والذهب وجلود النمور والعاج والعنبر والصمغ وريش النعام . ومن سلع البحر الأحمر[٢] السيوف والبن والصمغ والبخور والزعفران ، ومن مصر الحبوب والكتان وقصب السكر والسمسم وماء الورد والتبغ .

ومن العراق التمور المختلفة والحناء والمنسوجات وماء الورد وزيت السمسم والسكر والنيله للصباغة[٣] ومن فارس المنسوجات المختلفة والثياب والستائر والبسط والعطور والفضة والمعادن والحديد والنحاس والكبريت ومواد الكتابة[٤] علاوة على اللؤلؤ والخيول ومنتجات الخليج العربى ومنتجات جنوب شبه الجزيرة العربية .

---

(١) أدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٢٥ وما بعدها .

(٤) الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٩٤ وما بعدها .

المقدسى : المصدر السابق .

ازدهرت التجارة بتلك السلع عبر الخليج العربى والبحر الأحمر ومصر ، وهو طريق الملاحه العالمى القديم حيث ازدهرت موانى عالمية عبر تلك الطرق إلى موانى الشام ، مثل هرمز وسيراف والبصرة والبحرين وعمان وصحار ومسقط وقلهات ثم موانى البحر الأحمر ومصر .

عرف الأوربيون الكثير عن الشرق وثرائه الناتج عن نقله التجارة العالمية عبر الطرق الملاحية ، وعرف البرتغاليون تحكم وسيطرة المسلمين على طرق الملاحه والتجارة بين شرق العالم وغربه ، واحتكارهم لها وما ترتب على ذلك من ضرائب تفرض على هذه السلع ، وأيقن البرتغاليون أن التجارة هى سبب قوة العالم الإسلامى ، لذلك رأوا أن أفضل ضربة توجه لهذا العالم هى ضربة اقتصادية تقضى على احتكار المسلمين لهذه السلع وهذه التجارة ، وتقضى على تحكمهم فى طريق الملاحة الدولية بين شرق العالم وغربه[1] .

وكانت لتلك السلع الشرقية أهمية كبرى عند الأوربيين خاصة التوابل التى صارت أثمانها تقترب من أثمان الأحجار الكريمة والذهب

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ص ٤٢٥ .

الحميرى : الروض المعطار ص ٣٣٢ وما بعدها .

ابن بطوطه : تحفه النظار ص ٢٧٨ وما بعدهـــــا .

جورج حوارنى : العرب والملاحه ص ٢٠٧ وما بعدها .

وذلك للرسوم الجمركية العالية التى تفرضها دول العالم الإسلامى[1] عبر خطوط الملاحة .

فدولة المماليك فى مصر كانت تفرض ضرائب جمركية عند السويس مرة ثم عند الإسكندرية مرة أخرى ، لذلك قرر الصليبيون القضاء على احتكار الشرق الإسلامى للتجارة الدولية واتخذوا من العوامل الدينية ستارا يخفى أهدافهم الحقيقية وهى الأهداف الاقتصادية ، وقد تحدث المؤرخ زين الدين[2] عن العوامل الإقتصادية التى دفعت البرتغاليين للكشوف الجغرافية ومحاولة الوصول إلى الخليج العربى ثم الهند وأشار إلى تجارة التوابل .

ومما يوضح أهمية العوامل الإقتصادية الاستعمارية فى حركة الكشوف الجغرافية ما جاء فى مرسوم البابا نيقولا الخامس للأمير هنرى عام ١٤٥٤م ، يبارك فيه جهود هنرى الملاح ، ويعطيه الحق فى جميع البلدان التى يكتشفها حتى الهند «وله الحق أن يغزوها جميعاً»[3]. وتلك عبارة صريحة تنطق بالحقيقة الكامنه وراء الستار الدينى .

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢١ .

(٢) تحفه المجاهدين ص ٣٧ وما بعدها .

(٣) بانيكار : آسيا والسيرة الغربية ص ٢٦ وما بعدها .

عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص ١١٢ وما بعدها .

كشف طريق رأس الرجاء الصالح :

جاءت رحلة بارثلميوديـاز الذى خرج من لشبونه سنه ١٤٨٧م وسار مجاذيا للشاطىء الغربى لأفريقيا حتى عبر جنوب القارة[١] ثم عاد إلى لشبونه فوصلها ١٤٨٨م[٢] . وبعد نحو عشر سنوات تم فاسكودى جاما حركة الكشوف الجغرافية فخرج من لشبونه فى يوليو ١٤٩٧م ووصل إلى غرب الهند فى مايو ١٤٩٨م حيث مكث نحو ثلاثة أشهر ثم رجع دى جاما إلى البرتغال فى مايو ١٤٩٩م وأستقبل استقبالا حافلا .

هكذا بدأ تحقيق الكثير من أهداف الصليبية الأوربية فى الشرق الإسلامى بعد عبور بارثلميوديـاز رأس الرجاء الصالح ، ووصول فاسكودى جاما إلى الهند .

وترسل البرتغال حملة أقوى وأضخم بقيادة فاسكودى جاما وقد قلده الملك راية القيادة فى احتفال كبير بالكنيسة ولقبه بـ « أمير البحار الشرقية »[٣] وبدأ دى جاما يضع الأهداف الصليبية الاستعمارية

---

(١) يسرى الجوهرى : الكشوف الجغرافية ص ١٣١ .

(٢) شينى : تاريخ العالم الغربى ص ١٧٧ .

يسرى الجوهرى : المرجع السابق ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٣) Sousa : Op. Cit. Vol. 1, PP. 63 - 64 .

موضع التنفيذ حسب أوامر حكومته وخطتها ، فقام بإغلاق مدخل البحر الأحمر الجنوبى ومنع سفن المسلمين من الإبحار فيه ، وكان البرتغاليون قد احتلوا جزيرة مدغشقر وعددا من المدن الواقعة على ساحل شرق افريقيا ، وأقاموا المحطات والمراكز فى طريق الهند وهدفهم إنشاء مركز تجارى برتغالى على ساحل الهند[١] ومارس البرتغاليون كل ألوان القرصنة والإرهاب والوحشية ضد المسلمين[٢] ، فقطعوا الطرق واستولوا على السفن ولم يسلم منهم حتى الحجاج المسلمين فقد وقعت فى يدهم سفينة حجاج أمام ساحل المليبار متجهة إلى مكة تابعة للسلطان قنصوه الغورى المملوكى فحملوا ما بها من بضائع ثم أحرقوها بركابها حتى غرقت[٣] .

وأحرقوا مدن المسلمين ومساجدهم وداسو المصاحف بأقدامهم وأجبروا المسلمين على الدخول فى المسيحية[٤] .

وكما قام الصليبيون بحملات تبشيريه زمن الحروب الصليبية ، قام البرتغاليون أيضا أثر الكشوف الجغرافية بمحاولات تبشيرية بين

---

(١) بانيكار : المرجع السابق ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) ابن الديبع : قرة العين ح٢ ص ٢٠٦ .

الشيلى : السنا الباهر ورقة ٦٧ .

(٣) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٠ وما بعدها .

(٤) زين الدين : تحفه المجاهدين ص ٤٤ وما بعدها .

أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى الهند ج٢ ص ١٩١ وبعدها .

المسلمين فى كل مكان ، وقد وجدت هذه الحركات مقاومة كبيرة من جانب المسلمين حتى على ساحل مليبار وتصدى لها ذووا النفوذ من كبار تجار الجوجرات[١] والدكن ، وتطور الأمر إلى حد المقاومة العسكرية للبرتغاليين رغم التفاوت الكبير فى الأسلحة والمعدات ، وقد حمل دى جاما من واحد من التجار البهار فقط سفنا تحمل خمسة آلاف قنطار مما يوضح الهدف من الكشوف الجغرافية . اختص البرتغاليون المسلمين دون سواهم بحربهم ووحشيتهم البالغة أكد تلك الحقيقة المؤرخون المسلمون المعاصرون ومنهم زين الدين الذى وصف كل ما لاقاه المسلمون دون غيرهم على أيدى البرتغاليين[٢] . وتناول ذلك النهروالى[٣] الذى أكد عنف وشراسة البرتغاليين فى محاولاتهم للقضاء على المسلمين . وذكر ابن إياس هجوم البرتغاليين على سفن المسلمين[٤] . وأشار ابن الديبع إلى وجود الإفرنج على طول الطريق إلى الهند وتصيدهم للمسلمين وقطع الطريق عليهم دون سواهم[٥] .

---

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٩٨ .

Sousa : Op. Cit. Vol. I PP. 65 - 66 .

(٢) تحفة المجاهدين ص ٤٤ - ٤٦

(٣) البرق اليمانى ص ١٨ ، وما بعدها .

(٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج٤ ص ١٨٥ .

(٥) قرة العين ص ٢٠٦ .

وهنا نتساءل هل كان عنف البرتغاليين وشراستهم ضد المسلمين فقط دون سواهم لأسباب دينية بحته ؟ بالقطع لا .

لم تكن الأسباب الدينية فقط من وراء ذلك إنما كانت الدوافع والأهداف الإقتصادية هى التى دفعت البرتغاليين الصليبيين لعدائهم المرير للمسلمين . خرج البرتغاليون فى حركة الكشوفات للسيطرة على السلع الشرقية العالمية واحتكارها وتحويل طرق التجارة القديمة إلى طرق جديدة ثم انتزاع السيادة البحرية والتجارية من أيدى المسلمين . أى تحويل التجارة الدولية من البحر الأحمر والخليج العربى وموانى الشام ومصر إلى البحر المتوسط حيث ينقلها التجار البنادقة إلى أوربا .

ولكى يتم الغاء هذا الطريق وتحويل التجارة إلى طريقهم الجديد طريق رأس الرجاء الصالح تحت سيادتهم وسيطرتهم لم يكن من السهل أن يتم ذلك دون اصطدام بالمسلمين أصحاب السيادة القديمة وأصحاب المصلحة . إن المسلمين لم يكونوا ليستسلموا للبرتغاليين دون مقاومة عنيفة كان لابد اذن من عنف وشراسة بالغة من البرتغاليين لينتزعوا ما بأيدى المسلمين من سيادة بحرية واحتكار للتجارة العالمية .

حينما حاول البرتغاليون اختراق البحر الأحمر المؤدى إلى موانى الشام ومصر محاولين الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز تصدى لهم سلاطين المماليك فى مصر بكل قوة مدركين مدى خطورة

ذلك على اقتصادهم وسيادتهم البحرية والتجارية حت احبطوا هذه المحاولات الصليبية . وبعد سقوط الدولة المملوكية كقوة إسلامية تحمى مصالح المسلمين ، برزت الدولة العثمانية لتكمل الدور فتحكم سيطرتها على البحر الأحمر ليظل بحراً إسلاميا وليظل ذلك الطريق تحت السيادة الإسلامية فكان لزاما على البرتغاليين ذوى الأطماع الاستعمارية ان يوجدوا لهم طريقا آخر كما كان لزاما عليهم أن يوقعوا بالمسلمين أكبر الهزائهم لينتزعوا ما بأيديهم .

كان الصراع رهيبا بين القوى الإسلامية والقوى الأوربية الصليبية على التجارة العالمية واحتكار السلع الشرقية ، ولم يكن صراعا دينيا بل كان صراعا اقتصاديا إتخذ من الدين قناعاً زائفا .

احتل البرتغاليون جزيرة سقطره ١٥٠٧م لأحكام السيطرة على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبالتالى القضاء على نفوذ المماليك فيه، كما احتلوا هرمز[١] وبعد ذلك حاولوا احتلال عدن ، ولم يتمكنوا فحرقوا السفن الموجوده بالميناء ، وأعادوا المحاولة وهزموا مرة ثانية[٢] . ولم تتوقف محاولات البرتغاليين لاحتلال عدن حتى سقطت دولة

---

(١) ابن الديبع : قرة العين ص ٢١١ .
ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج٨ ص٦٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢١٦ وما بعدها .

المماليك وظلت سفنهم تهاجم سفن المسلمين وتستولى عليها لينتزعوا السيادة على أسواق وسلع الشرق ومنها التوابل[١] .

ظل البرتغاليون يهاجمون موانى وسفن المسلمين حتى نجحوا فى إغلاق البحر الأحمر والخليج العربى فى وجه تجارة وسلع الهند ، بل تعقبوا المسلمين فى المحيط الهندى والموانى الهندية حتى تمكنوا من تحويل التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وانخفضت الأسعار فى لشبونه وأوربا لحد بعيد بينما انهار اقتصاد دولة المماليك فى مصر بعد انخفاض مواردها المالية من الضرائب المفروضه على التجارة فى موانيها وحرمانها من سلع الشرق الأقصى[٢] ، فانهارت تجارة مصر المملوكية ، واهتز اقتصادها[٣] لحرمانها من مصدر ثرائها الأول رغم مقاومتها المستميتة .

لم يستسلم المماليك بسهولة فقد أرسل السلطان قنصوه الغورى حملة بحرية إلى الهند يقودها حسين الكردى سنة ١٥٠٨م[٤] فهزم الأسطول البرتغالى فى البداية عند جزيرة « ديو » لكن البرتغاليين

---

(١) البحروای : فتح العثمانيين عدن ص ٦٨ وما بعدها .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج٥ ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠ وما بعدها .

هاجموه ثانية وأوقعوا به هزيمة ودمروا سفن المسلمين وكان ذلك سنة ١٥٠٩م[١] .

وفى عام ١٥١٣م هاجم البوكرك عدن واستنجد حاكم اليمن بسلطان المماليك فى مصر فجهز حملة إلى الهند[٢] وتضافرت القوى الإسلامية صاحبة المصلحة فأرسل السلطان العثمانى بايزيد الثانى الأسلحة والمعدات والأخشاب لبناء السفن[٣] ، ولم تتمكن هذه الحملة من الوصول إلى الهند والقضاء على النفوذ البرتغالى بها . كل ما تمكنت منه هو الدفاع عن المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

ولما فشل البرتغاليون فى السيطرة على البحر الأحمر توجهوا بأطماعهم إلى الخليج العربى للسيطرة على مراكز التجارة فيه[٤] . وانتزاعها من أيدى المسلمين وذلك مثل قلهات وقرياط ومسقط وخورفكان وهرمز والمنامة فى البحرين . واتخذ البرتغاليون فى ذلك كل ألوان الوحشية والبربرية[٥] وتذكر المصادر عنف المذبحة التى قام

---

(١) Sousa : Op. Cit. Vol. I PP. 147 - 149 .

(٢) إبن إياس : بدائع الزهور ج٤ ص ١٨٢ - ٣٠٧ . النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩ .

(٣) إبن إياس : بدائع الزهور ج٤ ص ٢٠١ . البحراوى : فتح العثمانيين عدن ص ٤٧ .

(٤) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٤ وما بعدها .

(٥) Sousa : Op. Cit. Vol. I PP. 126 - 127 .

بها البوكيرك فى مسقط وكيف غطت جثث المسلمات مياه الخليج حتى كان البرتغاليون ينهبون الحلى الذهبية التى يرتدينها[١] .

تمكن البرتغاليون من تدمير القوى البحرية العربية الإسلامية فى الخليج العربى بعد أن احتلوا مراكز التجارة فى الخليج ، وعمل البرتغاليون على منع العرب من التجارة مع الهند والشرق الأقصى بكل الوسائل العنيفة[٢] .

بدأت المقاومة ضد البرتغاليين ، ورغم حركات القمع العنيفة التى مارسها البرتغاليون ضد المسلمين إلا أنهم لم يركنوا إلى اليأس والاستسلام ، وتطلعوا إلى الدولة العثمانية أكبر قوة اسلامية آنذاك ،وتدخل العثمانيون عسكريا ضد البرتغاليين فالمصالح التجارية الإسلامية واحدة ومشتركة ، ورغم أن الحملات العثمانية فى الخليج لم تحقق انتصارات قوية حاسمة ضد البرتغاليين ، إلا أنها أضعفت من نفوذهم وشتتت قواهم .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) Sousa : Op. Cit. Vol. I P. 141 .

ومما يوضح الدوافع الإقتصادية الإستعمارية للكشوف الجغرافية ما جرى بعد ذلك من تنافس حاد بين القوى الأوربية للسيطرة على الخليج وتجارة الشرق الأقصى وذلك بظهور الهولنديين ثم شركة الهند الشرقية الإنجليزية التى تأسست سنة ١٦٠٠م ودخولهما مع البرتغاليين فى حروب ومنازعات للسيطرة على الخليج[١] والطرق التجارية إلى الشرق .

هكذا نجحت حركة الكشوف الجغرافية فى تحقيق ما فشلت فيه الحركة الصليبية ، فقد وجه البرتغاليون ضربة قوية لمنطقة الشرق الإسلامى ، وتمكنوا من الالتفاف حول العالم الإسلامى من جهة الجنوب ، واستطاعوا القضاء على المصالح التجارية الإسلامية وانتزعوا السيادة على التجارة العالمية بسيطرتهم على السلع الشرقية وطرق الملاحة ، فاحتكروا ذلك كله مما أدى إلى انهيار الاقتصاد الإسلامى وصارت منطقة الخليج منطقة صراع ضد الإسلام والمسلمين ، ثم كان الإستعمار الأوربى للمنطقة .

وهكذا كانت حركة الكشوف الجغرافية حلقة فى سلسلة الصراع الصليبى بين الشرق العربى الإسلامى وأوربا ، ففشل الحركة الصليبية كان دافعا لحركة الكشوف الجغرافية فهى بذلك متممة لها .

---

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٣٠ .

المصـــادر والمراجـــع

ابن الأثير : علي بن أحمد بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢م .

- التـاريخ البـاهر في الدولة الأتابكيـة بالموصل . نشـره وحققه عبد القادر أحمد طليمات .

- الكامل في التاريخ . الطبعة الثالثة .

أحمد دراج : الدكتور

- المماليك والفرنج .

آدم ميتز :

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري . ترجمة عبد الهادي أبو ريده .

إرنست باركر :

- الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .

أرنولد : سيرتوماس و .

- الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين . مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ .

ابن إياس : محمد بن أحمد . ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م .

- بدائع الزهور في وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٩٦١ .

الإصطخري : إبراهيم بن محمد الفارسي ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م .

- المسالك والممالك . تحقيق محمد عبد العال الحيني . القاهرة ١٩٦١ .

Ostrogorsky: History of the Byzantine State Tr., by J. Hussey. Oxford. 1956 .

Baldwin : Medieval Church. New York 1960 .

Pirenne : Economic and Social History of Medieval Europe. Tr. by I.E. Clegg London 1961 .

بانيكار :

- آسيا والسيطرة الغربية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . القاهرة ١٩٦٢ .

البحراوى : الدكتور محمد عبد اللطيف .

- فتح العثمانيين عدن . القاهرة ١٩٧٩ .

الأسفار . بيروت ١٩٦٤ .

The Cambridge History of Africa. Vol. 3 London 1977.

The Cambridge History of Islam. Vol. 1 London 1970.

Thompson : Economic and Social History of Islam London 1959 .

جوزيف نسيم : الدكتور

- العرب والروم واللاتين الاسكندرية ١٩٨٣ .

جورج حورانى : فضلو

- العرب والملاحة فى المحيط الهندى . ترجمة يعقوب بكر القاهرة ١٩٥٨ .

Grousset, R: The Sum of History. English version by A.H.Temple Patterson. Oxford, 1951 .

الحميرى : محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤م .

– الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٧٥ .

ابن الديبع : أبى الضياء عبد الرحمن بن على ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧م

– قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن على الأكوع جـ ٢ القاهرة ١٩٧٦م .

ريموندا چيل : شاهد عيان للحملة الصليبية الاولى .

– تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس.

– نقله إلى الإنجليزية مع مقدمة وهوامش جون هيوم هيل ولوريتا ل هيل جامعة هيوستن . نقله إلى العربية ، د. حسين محمد عطية طبعة ١٩٨٩ اسكندرية .

Runciman , Steven : A History of the Cambridge, 1954-55.
The First Crusaders Journey across The
Balkan Peninsula. B. 18 1948. P.P. 207 - 221.

زيادة : الدكتور محمد مصطفى

– حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة القاهرة ١٩٦١م .

زين الدين : ت (ق ١٠هـ)

– تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين . لشبونة ١٨٩٨م

سعيد عاشور : الدكتور

– الحركة الصليبية القاهرة ١٩٧٦ الطبعة الثالثة .

السيد رجب حراز : الدكتور

– الدولة العثمانية وشبة جزيرة العرب . القاهرة ١٩٧٠ .

– عصر النهضة ، القاهرة ١٩٧٤ .

Sousa :The History of the Discovery and Conquest of India by the Portugese .

Setton, K.M. : A History of the Crusades . pensylvania, 1958 .

Stevenson. W.B. : The Crusades in the East. Cambridge. 1907 .

شينى :

– تاريخ العالم العربى . ترجمة مجد الدين حفنى ناصف . القاهرة .

Show, Stanford : History of the Ottoman Empire and Modern Turkey New York 1976 .

صلاح العقاد : الدكتور

– التيارات السياسية فى الخليج العربى . القاهرة ١٩٧٤ .

عنان : محمد عبد الله

– نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة ١٩٦٦ .

عبد العزيز الشناوى : الدكتور

– أوربا فى مطلع العصور الحديثة . القاهرة ١٩٧٧ .

عبد المجيد عابدين :

– الحبشة والعرب . القاهرة .

ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨م .

– شذرات الذهب من أخبار من ذهب . القاهرة ١٩٣٣ .

فشر :

– أوربا العصور الوسطى . ترجمة د. محمد مصطفى زيادة وآخرين ، القاهرة ١٩٥٤ .

ماجد : الدكتور عبد المنعم .

– العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ١٩٦٦ بيروت .

محمد جمال الدين سرور : الدكتور

– مصر فى عصر الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٦٠ .

Milles. S.B.: The Contries and Tribes of the persian Gulf. London 1966 .

المقدسى : محمد بن أحمد ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥ م .

– أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن، ١٩٠٦ .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ

– السلوك لمعرفة دول الملوك . القاهرة ١٩٥٨م .

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . بولاق ١٢٧٠ هـ .

النهروالى : قطب الدين محمد بن أحمد ت ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠م .

– البرق اليمانى فى الفتح العثمانى . تحقيق حمد الجاسر الرياض ١٩٦٧ م .

وليم الصورى : وهو شاهد عيان للحملة الصليبية الاولى .

–الحروب الصليبية . جـ١

ترجمة د. حسن حبشى . طبعة ١٩٩١ الهيئة العامة للكتاب سلسلة تاريخ المصريين (٤٥) .

يسرى الجوهرى :

– الكشوف الجغرافية. اسكندرية ١٩٦٧ .

يحيى بن سعيد الأنطاكى :

– التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت ١٩٠٩ .